تاريخ الحياة العلمية

في جامع النجف الأشرف

الشيخ ضياء الدين الدخيلي(*)

إن تاريخ الدراسة في هذا المعهد الجليل يتوغل في أعماق العصور الإسلامية إلى أمد بعيد. وبما أن تواته هي البناية التي أقيمت على مرقد الإمام علي بن أبي طالب(عليه السلام) فلابد للراغب في معرفة حياته العلمية والأدبية في أدوارها من طفولتها إلى شيخوختها -أن يلم إلمامة قصيرة بنشأة هذه البنية وتطورها في مراقي العمران. فقد كان حب الشخصية الإسلامية القوية الدفينة هنا، هو الذي جذب العلماء إلى مجاورة المرقد الطاهر ليشيدوا قواعد هذه المدرسة ويكونوا الحلقات لرفع منار الثقافة الإسلامية من الحديث والفقه وأصوله والفلسفة وما تستلزم من مقدمات تمهيدية وأسس أصبحت بعد حين مباني مستقلة بنفسها كفنون الأدب والرياضيات من هندسة وحساب وهيئة. لقد استمر التدريس في بناية القبر العلوي حتى الآن، فقد درست فيها النحو والمنطق والمعاني والبيان وعلم الفقه وأصوله والفلسفة الإسلامية على أساتذة عرب وفرس في حلقات كبرى وصغرى ولقد نظمنا فيها الجماعات للتذاكر وحلّ عوائص تلك الأفانين من الثقافة وقضيت فيها ردحاً من الزمن قيماً. أما كيف قامت أركان هذه المدرسة العالية فذلك جذاب ممتع.

هناك أسطورة تقص في (إرشاد الديلمي وعمدة الطالب) تقول إن القبر كان مخفياً عن عبث أعداء الدعوة العلوية إلى أن أظهره الرشيد وبنى عليه قبة ذات أربعة أبواب من طين أحمر وعلى رأسها جرة خضراء وتحتها الضريح من حجارة بيضاء. وحكى في فرحة الغري في قصة طويلة أنه قبل الرشيد وضع داود بن علي المتوفى سنة ١٣٣هـ صندوقاً دُرس بإهماله خوف سطوة العباسيين الذي تبدلت سياستهم تجاه العلويين حتى بطشوا بهم واضطهدوا شيعتهم وقعدوا لهم كل مرصد. وسبب آخر في اندراسه هو عامل طبيعي غير هذا الأدبي، فقد ساعد على ضياعه وقوعه في منخفض الوادي معرضاً لجري السيول ومهب الرياح.

(*) كاتب، متتبع، مؤرخ، أديب، شاعر، مؤلف.

عن: مجلة الرسالة المصرية س٦ ع ٢٦١ في ١٣٥٧هـ/١٩٣٨م.

قال في نزهة القلوب: وعقيب بناء الرشيد بعد سنة ١٨٠هـ جاوره الناس. ويمكنك أن تعتبر هذه المجاورة بذرة الحياة العلمية الأدبية الحاضرة، فمن مستلزمات مجاورة هذا المعبد الإسلامي الذي كان ولا يزال منتجع الزوّار من قاصي الأرض ودانيها -تدبر الشريعة الإسلامية وتداول أحكامها. وقد وجدت إجازات برواية أحاديث قال راووها إنهم تلقوها في رواق قبر الإمام(عليه السلام) وكان عهد هذا التلقي للعلم الإسلامي سحيقاً في القدم. وقرأت في (فرحة الغري) أنه في أيام المعتضد العباسي بني محمد بن زيد العلوي الداعي الصغير(صاحب طبرستان الذي ملكها عام ٢٧٠ بعد أخيه الحسن ثم قتل عام ٢٨٧ كما في كامل ابن الأثير وقد تنسب العمارة لأخيه الحسن)- قبة وحائطاً وحصناً فيه سبعون طاقاً. وقد لوّح ابن أبي الحديد إلى هذه العمارة إذ قال: «زار القبر جعفر الصادق وأبوه محمد ولم يكن إذ ذاك قبراً معروفاً ظاهراً وإنما كان به سرح عضاه حتى جاء محمد بن زيد الداعي صاحب الديلم فأظهر القبة»[١].

وقال ابن الأثير: «وفي سنة ٢٨٢هـ وجه محمد بن زيد العلوي سراً من طبرستان إلى محمد ابن ورد العطار باثنين وثلاثين ألف دينار ليفرقها على أهل بيته ببغداد والكوفة والمدينة فسعى به إلى المعتضد فأمره أن يكتب إلى صاحبه بطبرستان أن يوجه ما يريد ظاهراً وأن يفرق ما يأتيه ظاهراً وتقدم بمعونته على ذلك» [٢].

وهذا يؤيد ما رواه ابن أبي الحديد، وقد طرأ على ما بناه الداعي بناء الرئيس الجليل عمر ابن يحيى القائم بالكوفة فقد عمّر قبر جده(عليه السلام) من خالص ما له ثم قتل عام ٢٥٠هـ[٣] وحمل رأسه في قوصرة إلى المستعين العباسي[٤].

ومع هذا تقوم بناية ضخمة يشيّدها رجل السطوة والعمران عضد الدولة البويهي، فحين تولى السلطة في العراق شاد عمارة القبر الثالثة «أقام بعسكره في ذلك الطرف قريباً من السنة وبعث فأتى بالصناع والأساتذة من الأطراف وخرب تلك العمارة وصرف أموالاً كثيرة جزيلة وعمّر القبر عمارة جليلة حسنة»[٥].

---

(١) شرحه لنهج البلاغة ٢/ ٤٥.

(٢) تاريخ ابن الأثير ٧/ ١٥٦.

(٣) من مستدرك الوسائل للمحدث النوري ج٣.

(٤) ترى من التاريخ أنه توفي قبل ملك الداعي فلا بد أن الذين أخذنا منهم خبر إصلاحه عمارة الداعي قد غفلوا عن هذه الناحية.

(٥) عن رياض السياحة ونزهة القلوب وإرشاد القلوب للديلمي وعمدة الطالب وفرحة الغري على اختلاف جزئي في التاريخ.

وقرأت في عمدة الطالب في أنساب آل أبي طالب... إلى أن كان زمن عضد الدولة فناخسرو ابن بويه الديلمي فعمره عمارة عظيمة وأخرج على ذلك أموالاً جزيلة وعيّن له أوقافاً، ولم تزل عمارته باقية إلى سنة ٧٥٣، وكان قد ستر الحيطان بخشب الساج المنقوش فاحترقت تلك العمارة وجددت عمارة المشهد على ما هي عليه الآن (توفي المؤلف سنة ٨٢٨) وقد بقي من عمارة عضد الدولة قليل)

وقال آخر: إن عمارة عضد الدولة من أجلّ العمارات ومن أحسن ما وصلت إليه يد الإنسان في ذلك الوقت بذل عليها الأموال الطائلة وجلب إليها الرازة والنجارين والعملة من سائر الأقطار. قالوا[1]: إن هذه العمارة وإن كان لعضد الدولة يرجع تأسيسها فقد عرضت عليها إصلاحات جمّة وتحسينات قيمة من البويهيين ووزرائهم والحمدانيين ومن المستنصر العباسي الذي عمّر الضريح المقدس وبالغ فيه وزاره مراراً (كما في فرحة الغري) وكذلك لقد عمر من قبل: بني جنكزخان وغيرهم حتى وصلت العمارة إلى ما شاهده ابن بطوطة الرحالة الذي وردها بعد أن قضى حجه عام٧٢٥هـ وقال في رحلته: «نزلنا مدينة مشهد علي بن أبي طالب(رضه) بالنجف وهي مدينة حسنة نظيفة في أرض فسيحة صلبة من أحسن مدن العراق وأكثرها ناساً وأتقنها بناء.. دخلنا باب الحضرة حيث القبر الذي يزعمون أنه قبر علي(عليه السلام) وبإزائه المدارس والزوايا والخوانق معمورة أحسن عمارة وحيطانها بالقاشاني وهو شبه الزليج عندنا لكن لونه أشرق ونقشه أحسن. ويدخل من باب الحضرة إلى مدرسة عظيمة يسكنها الطلبة والصوفية من الشيعة؛ ومن تلك المدرسة يدخل إلى باب القبة عليه الحجّاب والنقباء والطواشية يأمرون الزائر بتقبيل العتبة وهي من الفضة وكذلك المضادتان؛ ثم يدخل القبة وهي مفروشة بأنواع البسط من الحرير وبها قناديل الذهب والفضة منها الكبار والصغار، وفي وسط القبة مسطبة مربعة مكسوة بالخشب، عليه صفائح الذهب المنقوش، المحكمة العمل مسمرة بمسامير الفضة قد غلبت على الخشب بحيث لا يظهر منه شيء، وارتفاعها دون القامة وفوقها ثلاثة قبور يزعمون أن أحدها قبر آدم(عليه السلام) والثاني قبر نوح(عليه السلام) والثالث قبر علي(رض)، وبين القبور طسوت ذهب وفضة فيها ماء الورد والمسك وأنواع الطيب يغمس الزائر يده في ذلك ويدهن به وجهه تبركاً. وللقبة باب آخر عتبته أيضاً من الفضة وعليه ستور من الحرير الملون يفضي إلى مسجد مفروش بالبسط الحسان مستورة حيطانه وسقفه بستور الحرير وله أربعة أبواب عتباتها فضة وعليه ستور الحرير، وخزانة الروضة عظيمة فيها من الأموال مالا يضبط لكثرته»[2].

---

(١) ماضي النجف للشيخ جعفر محبوبة.

(٢) رحلة ابن بطوطة ١/ ١٠٩.

وتدل الآثار أنه كان في عهد عضد الدولة حول القبر الشريف العلوي مدرسة إسلامية فيها فقهاء والقراء، يتعاهدها بخيراته ذلك الملك العمراني المحب للعلم وأهله[1].

ففي فرحة الغري عن يحيى بن عليان الخازن بالقبر الكريم أنه وجد بخط ابن البرسي المجاور بمشهد الغري على ظهر كتاب بخطه: قال توجه عضد الدولة عام ٣٧١هـ إلى المشهد الشريف الغروي وزار الحرم المقدس فكان مما فرقه ألف درهم على الناحة (الذين ينوحون على الحسين) وثلاثة آلاف درهم على الفقراء والفقهاء. وروى ابن مسكويه في تجارب الأمم (٦/ ٤٠٧) وابن الأثير (٨/ ٢٣٤) أنه في عام ٣٦٩ أطلق عضد الدولة الصلات لأهل الشرف والمقيمين بالغري وغيرهم من ذوي الفاقة وأدرت لهم الأقوات.

❖ ❖ ❖

وفي أثناء عهد عمارة عضد الدولة حصل حادث مهم في تاريخ جامع النجف الأشرف كان له الأثر الفعال في تمركز التدريس فيه، فقد هاجر إلى الغري العلامة شيخ الطائفة محمد أبو جعفر الطوسى فأقام نهضة علمية كبرى ونظم الحركة الفكرية وقوّاها ورفع منار الثقافة الإسلامية، فأمّ النجف الأشرف من سائر أقطار الشيعة جمع غفير ليرتشفوا أفاويق العلم، وقد صارت في ذلك اليوم مركزاً مهماً من مراكز العلوم الإسلامية الكبرى وأنشئت فيها المدارس الكثيرة والمكتبات من قبل سلاطين الشيعة ووزرائهم وأهل الثروة والعلماء أنفسهم.

قدم الطوسي عام ٤٠٨ فدرس على الشيخ المفيد ببغداد مدة حياته وبعد موته على السيد المرتضى صاحب الأمالي، وكان السيد يجري عليه شهرياً اثنى عشر ديناراً كما يجري على تلامذته كل سنة. ولقد عظمت منزلته أخيراً وأصبحت له مكانة علمية أقبلت عليه بطلاب العلم.

حدّث في (روضات الجنات) ورجال المامقاني أن فضلاء تلاميذه الذين كانوا من المجتهدين يزيدون على ثلاثمائة فاضل من الشيعة، أما من أهل السنة فما لا يحصى، وأن الخلفاء العباسيين في بغداد أعطوه كرسي الكلام، وكان ذلك لمن كان وحيداً في ذلك العصر. وكانوا مبالغين في تعظيم العلماء لا فرق لديهم بين المذاهب الإسلامية، ولكن الوشايات أخذت تدّب حول هذا

(١) قال السيوطي في بغية الوعاة: «كان عضد الدولة بن بويه أحد العلماء بالعربية والأدب، له مشاركة في عدة فنون، وله في العربية أبحاث حسنة؛ وكان كامل العقل غزير الفضل حسن السياسة شديد الهيبة بعيد الهمة ذا رأي ثاقب، تولى ملك فارس ثم ملك الموصل وبلاد الجزيرة ودانت له العباد والبلاد، وهو أول من خطب له على المنابر بعد الخليفة، وأول من لقب في الإسلام شاهنشاه، وله صنف أبو علي الإيضاح والتكملة، وهو الذي أظهر قبر علي بن أبي طالب وبنى عليه المشهد، مات عام ٣٧٢ بعلة الصرع».

العلم حتى اضطرته أخيراً أن يغادر الزوراء ويشد الرحال إلى جوار ابن عم الرسول وهناك يقيم دعائم مدرسته. حكى القاضي في مجالسه عن ابن كثير الشامي أن الطوسي كان فقيه الشيعة مشتغلاً بالإفادة في بغداد إلى أن وقعت الفتنة بين الشيعة والسنة (وهذه الفتَن الداخلية هي التي خضدت شوكة الإسلام حتى انهار مجده) سنة٤٤٨هـ واحترقت كتبه وداره في باب الكرخ فانتقل من بغداد إلى النجف وبقي هناك إلى أن توفي سنة٤٦٠هـ.

وأضاف في الروضات احتراق كرسيه الذي كان يجلس عليه للكلام.

وحكى[1] جماعة أنه وشي بالشيخ إلى الخليفة العباسي فاستدعاه؛ غير أن الطوسي استطاع أن يزيل ما علق بخاطره فرفع شأنه وأنتقم من الساعي وأهانه.

وقال ابن الأثير (٩/ ٢٢٢) وفي سنة٤٤٩ نهبت دار أبي جعفر الطوسي بالكرخ وهو فقيه الأمامية وأخذ ما فيها وكان قد فارقها إلى المشهد الغروي.

هاجر الشيخ الطوسي إلى النجف الأشرف وسكنها وبقي يدرس اثنتي عشرة سنة، وألف كتباً قيمة في التشريع الإسلامي لم تزل مراجع؛ للعلماء فمنها (تهذيب الأحكام) و(كتاب الاستبصار فيما اختلف من الأخبار) و(المبسوط) و(الفهرست) و(ما يعلل وما لا يعلل) و(المجالس) الخ. ثم بقي تلامذته بعد وفاته عند مرقد الإمام واستمر التدريس والمهاجرة إلى المعهد العلمي النجفي حتى ظهر في الحلة المحقق الأول صاحب شرائع الإسلام (المتوفى عام٦٧٦) فاتجه رواد العلم إليه وقامت حركة فكرية قوية فيها فيما بعد، من أقطابها تلميذه العلامة الحلي صاحب المؤلفات القيمة الكثيرة في الفقه وأصوله والكلام وغير ذلك، وفي أثناء ازدهار الحركة العلمية في الحلة لم تضمحل في جاراتها النجف، فهذا الشيخ الرضي يفرغ من تأليف كتابه الشهير في النحو عام٦٨٣هـ في الغري، والرضي كما قال السيوطي في بغية الوعاة (ص٢٤) هو الإمام المشهور صاحب شرح الكافية لابن الحاجب الذي لم يؤلف عليها بل ولا في غالب كتب النحو مثله جمعاً وتحقيقاً وحسن تعليل. وقد أكب الناس عليه وتداولوه واعتمده شيوخ هذا العصر فمن قبلهم في مصنفاتهم ودروسهم، وله فيه أبحاث كثيرة مع النحاة واختبارات جمة ومذاهب، ينفرد بها، وله أيضاً شرح الشافية في الصرف. قال في (الروضات) توطن الشيخ الرضي بأرض النجف الأشرف وصنف شرحه المشهور على الكافية أيضاً في تلك البقعة المباركة، وذكر في خطبته أن كل ما وجد فيه من شيء لطيف وتحقيق شريف فهو من بركات تلك الحضرة المقدسة، توفي عام٦٨٦ انتهى.

---

(١) الروضات ولؤلؤة البحرين ومجالس القاضي ورجال المامقاني.

وقد نقل لي بعض الفضلاء أن الرضي ألف شرحه في مكتبة الإمام(عليه السلام) التي في الصحن الشريف وأنها كانت مكتبة عظيمة وحتى الآن لا تزال بقاياها تحوي نفائس الكتب، من جملتها قرآن بالخط الكوفي كتب عليه أنه بخط أمير المؤمنين علي بن أبي طالب(عليه السلام)، ومن ضمنها كتب علمية وأدبية نادرة قديمة الخطوط جداً، ويوجد فيها شرح الدريدية لأبن خالويه بخطه؛ ولكن لا ينتفع اليوم بنفائس هذا الكنز لأنه مقبور بالإهمال؛ وكان على مديرية الأوقاف العراقية أن تعهد بهذه المكتبة إلى رجل ضليع لينظمها ويعرضها لاستفادة روّاد العلم وإلاّ فأن تبعثرها وضياعها واضمحلالها أقرب النتائج المترقبة، وقد احترقت هذه المكتبة عام٧٥٥هـ وجددها جماعة من العلماء منهم ابن الآوي الذي كان صدراً للحكومة الأيلخانية وفخر المحققين ابن العلامة الحلي (كما أخبرني الأستاذ السمّاوي).

جُدد تعمير بناية القبر عام٧٦٠هـ بعد احتراق عمارة عضد الدولة بعمارة رابعة ذكرها مؤلفو القرن الثامن الهجري مجهولاً صاحبها يظن أنه من رجال الحكومة الأيلخانية، وقد أصلحها الشاه عباس الأول من أعظم ملوك إيران المتأخرين، وفي عهد العمارة قويت الهجرة إلى جامع النجف الأشرف في عهد المقدس الأردبيلي (المتوفى عام٩٩٦هـ) وكان عالماً فاضلاً مدققاً جليل القدر له عدة مؤلفات منها آيات الأحكام قد فسرها فيه وأرجع إليها قضايا الفقه، وله شرح الهبات التجريد وتعليقات على شرح المختصر للعضدي وشرح لإرشاد الأذهان في الفقه. وقد تولى الدرس في مدرسة الصحن الشريف، وكانت له حجرة فيه، هاجر إليه طلبة العلم وتخرج على يده جماعة من النوابغ منهم العلامة السيد محمد العاملي صاحب المدارك في الفقه وشرح القصائد العلويات السبع لأبن أبي الحديد في مدح الأمير(عليه السلام) وشرح الشواهد المدرجة في شرح بدر الدين لألفية أبيه ابن مالك وهو كتاب جليل مفعم بالفوائد غزير المادة الأدبية. وممن درس على الأردبيلي صاحب المعالم أحد الكتب المقرر تدريسها في جامع النجف الأشرف.

ولنعد إلى بناية القبر الفخمة فأنها تضعضعت وحصلت صدوع في القبة المنورة بمرور العصور وتعاقب الأعوام، وأراد الشاه صفي حفيد الشاه عباس الأول توسعة ساحة الصحن الضيقة فأمر بهدم بعض جوانبه وشيّدت هذه العمارة الضخمة الباقية إلى اليوم، وفي هذه العمارة كانت القبة الكريمة والإيوان والمئذنتان مبنية بالحجر القاشاني إلى عهد ملك إيران نادر شاه، أما هذا فقد نذر إذا فتح الهند أن يذّهب قبر الإمام(عليه السلام). وكذلك لقد أمر عام١١٥٥هـ بقلع الحجر القاشاني عن القبة المقدسة والمئذنتين والإيوان وتذهيبها، وبذل أموالاً عظيمة فقام بالتذهيب أكثر من مائتي صائغ ونحاس قد جمعهم من سائر أقطار الأرض وفيهم الصيني

والهندي والتركي والفارسي والعربي وقد طليت كل آجرة بمثقالين من الذهب الخالص على ما ذكر بعض الصاغة الذين تولوا إصلاح القبة أخيراً.

وقد وضع في خزانة القبر الشريف تحفاً جسيمة مما استلبه من ذخائر ملوك الهند، هذا فضلاً عمّا أهدى إليها غيره من الملوك والأمراء المسلمين، ففيها من المجوهرات والنفائس ما لا يثمن، وإن الأحجار الكريمة لا تعدّ ولا تحصى. أما القناديل الذهبية المرصّعة والسجاد الفاخر الموشى بالذهب والستائر المنتظمة فيها الجواهر، الأمور التي تعزّ على- الملوك فهي أعلاق ونفائس تبهر العقول ولا يصدّق اجتماعها في أعظم الكنوز

وإن بداعة الفن في البناية تبهر الأنظار وتخلب الأفكار بزخرفها وطلائها. وقد قال رحالة مصري: «وقبة القبر ومئذنتاه تكسى بالذهب الخالص في بريق خاطف. جزت الباب إلى الفناء السماوي المربع تطل عليه الحجرات المتجاورة ثم دخلت باب الضريح، وأنّى لقلمي الكليل أن يصف إبداعه من نقوش وتطعيم بالذهب والفضة وزخرف بالبلور والزجاج والقيشاني ما فاق فيه جميع المساجد الأخرى) وإن هذه الحجرات كانت مساكن لطلبة العلم قبل أن تشاد المدارس العديدة.

وعسانا نعود لدراسة النواحي الأخرى المهمة من جامع النجف الأشرف وحياته العلمية والأدبية.